ابن سلام الجمحي وكتابه طبقات فحول الشعراء

يعتبر هذا الكتاب أقدم كتاب وصل إلينا في النقد العربي بعد كتاب "جمهرة أشعار العرب" لأبي زيد القرشي (171هـ)، وصاحبه هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي البصري، ولد بالبصرة سنة 150 هـ، وتوفي ببغداد سنة 232هـ. عاش في البصرة بين علماء اللغة ونحاتها ورواة أخبارها وأدبها، ولهذا كانت له معارف واسعة أخدها عن علماء عصره أمثال: حماد بن سلمة، وخلف الأحمر، والأصمعي، وأبي عبيدة، وكتب التراجم تنعته بأنه أحد الأخبار بين الرواة، وأنّه كان من أعيان أهل الأدب، كما تصفه بأنه كان له علم بالشعر والأخبار، وهما من جملة علوم الأدب.

وقد تميز عن علماء جيله بأنّه أول من قام بينهم بمحاولة جادة تمثلت في جمع شتات آراء سابقيه ومعاصريه في النقد، وتنظيمها تنظيما علميا في كتابه "طبقات الشعراء".

البنية الهيكلية:

مذهبه في الكتاب: قسم ابن سلام كتابه إلى خمسة أقسام هي:

1- المقدمة: وهي حاوية لمعظم آرائه النقدية بالإضافة إلى تاريخ نشأة بعض العلوم مثل علم النحو، حيث يذكر أن أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي.

2- طبقات الشعراء الجاهليين: وعددها عشر في كل طبقة أربعة شعراء.

3- شعراء المراثي.

4- شعراء القرى العربية مثل مكة والطائف والمدنية والبحرين ويهود المدنية.

5- طبقات الشعراء الإسلاميين وعددها أيضا عشر طبقات.

وتوقف عند شعراء العصر الاموي ولم يجاوزهم إلى الشعراء المحدثين على الرغم من معاصرته لبعضهم. وهو بتقسيمه الشعراء حسب أومانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين يوحي بقصد أو غير قصد أنه يفضل اتباع المنهج التاريخي مما له من أثر في بيان مدى التطور في الشعر والنقد.

وهو بتقسيمه شعراء كل عصر إلى طبقات يجعل أساس هذا التقسيم الجوانب التي يحدث التفاوت بينهم فيها كالمنزلة الأدبية، أو سيرورة الشعر، أو كثرة الإنتاج الشعري، أو جودته، أو القدرة على النظم في فنون الشعر المختلفة. وقد عدّ المخضرمين ضمن شعراء الجاهلية، لأنه لم يجد في شعرهم تطورًا أو سمات خاصة تميزه عن الشعر الجاهلي. وهو إذ يعقد فصلا خاصا بشعراء القرى العربية، أي شعراء المدينة ومكة والطائف والبحرين ويهود المدنية، إنما يريد أن يوضح أثر البيئة في الشعر، وأن يقرر أن البيئات الجاهلية ليست كلها سواءً في الإنتاج الشعري من وجهة نظره، وهو إذ يعرض بالحديث لشعراء الطبقات ينهج نهجا معينا وذلك بإيراد طرف من حياة الشاعر وشعره مع إيراد ما أمكن بما قيل قديما وحديثا عنه وعن شعره مع ذكر رأيه الشخصي.

فكرة التقسيم إلى طبقات: وفكرة التقسيم الشعراء إلى طبقات ليست من مستحدثات ابن سلام وإنما هي فكرة قديمة سبقه إليها أبو زيد القريشي في "جمهرة أشعار العرب" كما فطن إليها بعض من تقدمه

من أدباء العصر الإسلامي حيث جعلوا الفرزدق وجرير والأخطل طبقة، كما نمّاها اللغويون بجعل امرىء القيس وزهير والنابغة الذبياني والأعشى طبقة.

القضايا النقدية في الكتاب:

1- قضية الإنتحال: تقد قضية الإنتحال من أهم القضايا النقدية التي عالجها ابن سلام ويقصد بها فكرة الشعر المصنوع الذي ينسب للجاهليين وليس لهم، وهي تمثل خطرا على الشعر والنقد على حد سواء، لهذا كان لا بد لابن سلام أن يتناول الحدي عنهما محذرًا حتى يتشدّد رواد الشعر في تمحيص النصوص وتحقيقها، وكأنّ ابن سلام بموقفه هذا من الشعر المصنوع أراد أن يخدم الروح العلمية، وذلك بتحري إسناد مل قول إلى صاحبه، وكل شعر إلى عصره، وهو خير من برهن عليها وقد طبقها على من دسهم من الشعراء مستأنسا بما عرف عنها لدى العلماء متخذا مما رواه ابن اسحاق في السيرة النبوية من أشعار نموذجًا للشعر المصنوع المنتحل، حيث يقبل عليه بالطعن والتجريح خاصة الأشعار التي رواها ابن اسحاق لعاد وثمود، وقد اعتمد ابن سلام في نقله لها على الأدلة الآتية:

أ- القرآن الكريم كدليل نقلي، فالله عز وجل يقول:{وأنّه أهلك عادًا الأولى وثمود فما أبقى}، ويقول في عاد:{فهل ترى لهم من باقية؟}، فلم تبق إذ بقية من عاد وثمود فمن الذي حمل هذا الشعر منذ آلاف السنين.

ب- يعتمد اب سلام على اللهجات فيذكر أن عادًا من اليمن، وأن لليمانين لسانا آخر في هذا اللسان العربي، ويستدل بقول أبي عمرو بن العلاء: "مالسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا".

ج- يعتمد ابن سلام على تاريخ الأدب وعهد وجود القصيد في الشعري العربي وازدهاره، وهو عهد قريب جدّا من الإسلام، فيقول: "ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاّ الأبيات بقولها الرجل في حادثة، وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر على عهد بن المطلب وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع" ويقول في موضع آخر: " وكان أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب". وهكذا نقد ابن سلام الشعر المنسوب إلى عاد وثمود نقدا علميا قائما على البرهنة بالرجوع إلى أنساب العرب، واختلاف اللهجات العربية، وعهد تقصيد القصائد في الشعر العربي.

2- أثر البيئة في الشعر: حفل كتاب ابن سلام بالعديد من الملاحظات التي تشير إلى أثر البيئة في الشعر، ومن ذلك قوله في عدي بن زيد:"كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه، وسهل منطقه" بل نجده أكثر من ذلك يلاحظ غزارة الشعر في بيئة دون أخرى معللا ذلك بكثرة الحروب.

3- ثقافة الناقد: تكلم ابن سلام في كتابه عن ثقافة الناقد كلامًا يفهم منه أنّ الناقد يحتاج إلى معايشة الأدب وكثرة مدارسته، لأن ذلك يعينه على العلم بالأدب والشعر، يقول: "إنّ كثرة المدارسة تعين على العلم"، ويقول أيضا: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر الصناعات ..." فابن سلام يريد بهذا الكلام أنّ الناقد الذي يبتغي التمييز جيدا بين الأدب ورديئه يحتاج إلى تمرس بالأدب، ومخالطة له حتى يصبح بصيرًا به.

4- نشأة الشعر العربي: تكلم ابن سلام عن نشأة الشعر وتنقله في القبائل، فشعر الجاهلية بدأ أول ما بدأ في قبيلة ربيعة، وكان أول شعرائها "المهلهل" و "المرقشان" و "سعد بن مالك" و "طرفة بن العبد"

و "عمرو بن قميئة" و الحارث بن حلزة، والأعشى، والمتلمس، والمسيب بن علس، ثم تحول الشعر الجاهلي إلى قيس فمنها النابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب، ولبيد، والنابغة الجدعي والحطيئة، والشمّاخ، وفداش بن زهير ، ثم آل ذلك إلى تميم فلم يزل فيها إلى عصر ابن سلام، وقد علل لأولية الشعر في ربيعة بمقتل كليب وائل، هذا الحادث الذي أطلق لسان أخيه "المهلهل" برثائه، والذي يعدّ أول شعراء ربيعة، وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع.

5- طبائع الشعراء: التفت ابن سلام إلى اختلاف طبائع الشعراء وأخلاقهم، وانعكاس ذلك في أشعارهم، فمن الشعراء من كان يتنسك، ويتعبد في جاهليته، وتعفف في شعره، ولا يتهتك، ولا يقذع في الهجاء، ومنهم من كان يتهتك وشهر نفسه بتعاطيه الفواحش.

وهذه الآراء والأحكام تدل على تبحر ابن سلام في الشعر كما تدل على ذوقه الأدبي وحسه النقدي، وقدرته على إدراك السمات الخاصة التي يتميز بها شاعر من آخر.